المنابر في العمارة المساجدية – النشأة ومراحل التطور-

طالب الدكتوراه: عثامنة فؤاد

معهد الآثار جامعة الجزائر 2

الملخص:

تُعدّ دراسة المنابر كعناصر معماريّة وظيفيّة في فضاء المسجد ركيزةً أساسيّة تُبْرِزُ الماهية العامّة لهذا افضاء الدينيّ التعبّديّ من حيثُ رمزيّته ووظيفتُه وأبعادُه السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، حيث قمنا في هأ الموضوع بالتركيز على عنصر المنبر في العمارة المساجديّة لِـــما لَهُ من وظيفة معماريّة ودينيّة جليلة، حاولنا من خلاله التعريج على أهمّ المحطّات التاريخيّة الحضاريّة منذ عهد النبيّ –صلّى الله عليه وسلّم- إلى اليوم، وهذا بذِكْرِ أنواعه: الخشبيّة والرخاميّة وسائر موادّ إنشائه، وأنواعه من حيث ثباته وتحرّكه.

ومن خلال هذا الموضوع استقرأنا أهمّ الجزئيّات المُشكّلة لهذا العنصر الوظيفيّ بداية من العهد الأوّل إلى غاية العهد العثمانيّ، وتمّ تقديم نماذج منه خاصّة بالمغرب الأوسط (الجزائر).

Abstract:

The study of the pulpits as functional architectural elements in the mosque space is a fundamental pillar that highlights the general nature of this religious devotional space in terms of its symbolism, function and political, economic and social dimensions. Explaining the most important historical and civilizational milestones from the time of the Prophet - may God bless him and grant him peace - to this day, and this is by mentioning its types: wood, marble and other materials of its creation, and its types in terms of its stability and movement.

Through this topic, we read the most important parts of this functional element, starting from the first era until the end of the Ottoman era, and examples of it were presented especially in the Middle Maghreb (Algeria).

المقدمة:

إن الدراسات الأثرية ذات الصّلة بالعمارة والفنون تكتسي أهمية بالغة في التعريف بمكنونات المعالم من حيث ماهيتها ووظيفتها؛ حيث يمكننا من خلال دراسة المنبر كأحد العناصر المعمارية والفنية ببعديها الروحي والوظيفي معرفة أهم الخصائص والتفاصيل التطورية لهذا العنصر منذ ظهوره إلى غاية أهمّ مرحلة تطورية فيه، غلب عليها الجانبان الفني والوظيفي وهو ما يمكننا معرفته من خلال دراسة عنصر المنبر ومساره التاريخي والتطوري.

ـ المنابر في العمارة المسجديّة:

تعدّ المساجد في العمارة الإسلاميّة فضاء معرفيّا خصبا يتعلّق بالآثار والفنون والعمارة بشكل عامّ، حيث صاحبت المساجدُ تاريخَ الإسلام من بداياته، انطلاقا من مسجد قباء الذي كان التأصيلَ الدّيني والرابطَ الروحيّ ومحلّ التكتّل الاجتماعيّ على طاعة الله في المدينة المنوّرة، فهو أوّل ما كان من عمل النبيّ –صلّى الله عليه وسلّم- فيها إلى جانب المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وتقعيد الموادّ القانونيّة في الوثيقة، الأمر الذي يدلّ على أهمّيّته في الحفاظ على الأمن الداخليّ وفي تأليف القلوب وجمعها على معالي الأمور وأهمّها.

فكان المسجد مؤرّخا صادقا ووافيا، وشاهدًا أثريّا يحمل في عناصره ووحداته الكثير من الحقائق الواجبِ معرفتها، لذلك استفاضت الدراسات الآثاريّة مُتخصّصة في عناصره كُلَّ واحدٍ منها على حِدَة.

ومن العناصر المعماريّة الإنشائيّة التي اقترنت بجدار القبلة: المنبرُ، وقد اكْتَسى أهمّيّة كبيرة، وجاءت في فضله آثار صحيحة، وإلى جانبها وظيفته وخدمته التي يُقدّمها للمسلمين في المساجد.

فإنّ المنبر قد لازمَ المسجدَ من بداياته الأولى في المسجد النبويّ، فهو بهذه الخاصّيّة يُـــعْتَبَرُ رابطا تاريخيّا غير منقطع بين عهد النبيّ – صلّى الله عليه وسلّم – وبين الآن، فتقرّر الاهتمام به لفهم الكثير من الحيثيّات التي تخُصُّ العمارة المسجديّة خاصّة، والدّينيّة عامّة، والإسلاميّة بشكل أعمّ.

فدراسة المنبر في المسجد تساعد على معرفة الحقائق وِفقَ السيْرِ الكرونولوجيّ من بدايات المسجد إلى وقتنا الحاليّ، وهو الأمر الذي يوقفنا عند المنعطفات التاريخيّة المُهمّة. ومن خلال ما سبق تمّ التطرّق إلى:

- المنبر لغةً واصطلاحًا:
- تاريخه:
- أجزاؤه:
- الوظيفة المنوطة به:

- أنواعه:
- تعدّد المنابر في المسجد الواحد:
- خاتمة.

1- المنبر لغةً واصطلاحًا:

أ- لغةً: مادّته في اللغة: (نَـــبْـــر)، ومن معانيه: الرفع، فكل مرتفع منتبر، ونَـــبَرَ الشيء إذا رَفَعَه، ومنه: رجلٌ نَبَّـــارٌ أي صيَّاحٌ، ونَبَرَ الغُلامُ أي ترعْرَعَ، وانتبر الجرح أي وَرِمَ وارتفع وانتَفَخَ، ومنه: المنبر (بتثليث حركة الميم)[1]: مَـــرْقاة الخاطب، وسُمّي بذلك لارتفاعه وعلوّه[2].

ب- اصطلاحًا: عنصر معماريّ إنشائي، عبارة عن منصة مرتفعة تتسع لقيام وجلوس الخطيب، ويستخدم في الجمعات والأعياد والمناسبات، وهو أحد المعالجات الصوتية والبصرية؛ إذ كلما ارتفع المنبر سمع الحاضرون صوت الإمام، واستقبلوه بوجوههم ليرمقهم ويرمقوه[3].

وقد جاء ذكره في السنّة النّبويّة المطهّرة صراحة على سبيل المدح؛ ومن ذلك:

أ.ما رواه مسلم بسنده إلى عبد الله بن زيد المازنيّ – رضي الله عنه –، وبسنده من طريق آخر إلى أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم – قال: "ما بين بيتي ومنبري (أو ما بين منبري وبيتي) روضة من رياض الجنة" وزاد عن أبي هريرة – رضي الله عنه – " ومنبري على حوضي"[4].

ب.وما رواه البيهقي بسنده إلى سهل بن سعد الساعدي – رضي الله عنه – أنّ رسول الله – صلى الله عليه وسلّم – قال: "منبري (أو إنّ المنبر) على تُرعة من ترع الجنة"، ثمّ قال سهل: " هل تدرون ما الترعة؟" قالوا: "نعمْ الباب"، قال: " نعم هو الباب". وقال عنها محمد بن عمرو وهو أحد رجال سند البيهقيّ عن أبي هريرة – رضي الله عنه – لما سئل عن الترعة: "المرتفع"[5].

ت.وما رواه البيهقي أيضا بسنده إلى أمّ سلمة – رضي الله عنها – عن النبي – صلى الله عليه وسلّم – قال: " قوائم منبري رواتب في الجنّـــــة"[6].

2- تاريخ المنبر في المسجد النبويّ:

كان النبيّ – عليه الصلاة والسلام– أوّل الأمر يخطب مستندًا إلى جذع نخلة كانت إحدى سواري المسجد، فقد روى الإمام الشافعيّ أنّه: " كان النبيّ – صلّى الله عليه وسلّم – يُـــصلّي إلى جذع إذْ كان المسجد عريشا، وكان يخطب إلى ذاك الجذع ..."[7] فلاحظ الصحابة المشقة التي كانت تعتريه لذلك، فأشاروا عليه باتّخاذ أعواد يقوم عليها حتى يتسنّى له خطابهم على أحسن وجه دون عناء[8].

.اختلفت الأخبار حول من أشار على النبي – صلى الله عليه وسلم – باتّخاذ هذه الأعواد ومن صنعها، فقيل بأنّ تميمًا الداري– رضي الله عنه –، قال له: " يا رسول الله ألا أصنع لك منبرا تقوم عليه، فإنه أهون عليك إذا قمت وإذا قعدت؟ " قال: " وكيف المنبر؟ " قال: " أنا يا رسول الله أصنعه لك." فعمل له درجتين غير المقعد من خشب الأثل، وروي عن سهل بن سعد – رضي الله عنه – أنه أتاه رجال امْترَوْ في المنبر مـــمَّ عوده، فأخبرهم أنه أعرف بخبر المنبر، وأنّ النبي – صلى الله عليه وسلّم –أرسل إلى امرأة أنصارية لتأمر غلامها النجار بأن يعمل له أعوادا يجلس عليها إذا كلّم الناس، فكان المنبرُ الأوّل في الإسلام من ثلاث درجات من خشب الطَرفاء*، يقوم النبي – صلّى الله عليه وسلم – على الثانية، ويجلس على الثالثة، ودُفن الجذع الأول –كما قيل – تحت المنبر أو عن يساره أو شرقيّه أو في المكان الذي كان فيه. وثبت عن جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما – أنه قال: " كان جذعٌ يقوم إليه النبي – صلى الله عليه وسلم – فلما وُضع المنبر سمعنا للجذع مثل صوت العِشار، حتى نزل النبي – صلى الله عليه وسلم – فوضع يده عليه ."

وقال ابنُ بشكوال أنّ اسم هذا الغلام النجّار مينا، ويُقال إنّ صانعَ المنبر اسمهُ باقوم مولى العاص بنِ أُميَّة، وقيل: ميمونٌ النّجّار، وقيل: صنعه صباحُ مولى العبّاس بن عبد المطّلب، وذَكر ابنُ فتحون قبيصَة المخزوميّ وقال بأنّ غلامَه هو الذي صنعَ المنبَرَ.

وقال ابنُ رشد في المقدّمات أنّ النبيّ – صلّى الله عليه وسلّم – اتّخذَ المنبر سنة سبعٍ، وقيل سنة ثمانٍ؛ عمِله له غلام لسعد بنِ عُبادةَ، وقيل غُلامٌ لامرأة من الأنصار، وقيل غُلامٌ للعبّاس بنِ عبد المُطّلب. قال ابنُ رُشد: "فلعلّهم اجتَمعوا كُلُّهُم على عَمَلِه". انتهى

وخرّج الطبرانيّ عن عائشة – رضي الله عنها – حديثا ضعيف الإسناد فيه أنّ المنبر النبويّ كان أربع مراقٍ، لكنّ الصحيح هو أنه كان من ثلاثٍ.

وظلّ المنبر النبوي على هذه الحال في عهد الخلفاء الراشدين، سوى أنّ الخليفةَ أبا بكر – رضي الله عنه – نزل درجة عن موقف النبيّ – صلّى الله عليه وسلّم – فصار يقف خطيبا على الأولى، ويجلس على الثانية، رِعايةً للأدب مع النبيّ – عليه الصلاة والسلام.

ولّما خلفه عمر بنُ الخطّاب – رضي الله عنه –نزل درجة أخرى، فصار يخطب قائما على الأرض، ويجلس على الدرجة الأولى، مُراعاةً للأدب مع النبيّ – صلّى الله عليه وسلّم – وأبي بكر – رضي الله عنه–.

ولّما خلفَ عُثمانُ بنُ عفّان – رضي الله عنه – بقي على ما كان عليه عُمَرُ – رضي الله عنه – لّمدة ستِّ سنواتٍ، وبعدها رجع إلى الدرجة التي خطب عليها النبيّ – صلّى الله عليه وسلّم – فصار يخطب على الثانية، ويجلس على الثالثة

.بقي الأمر كذلك، حتّى إذا حكم معاويةُ – رضي الله عنه – أمرَ مروانَ بنَ الحكم أن يرفع المنبر النبويّ بستّ درجات، فأصبح من تسع مراقٍ، والخطيب يقف في الدرجة السابعة التي هي الدرجة الأولى من المنبر النبوي الأوّل، واستمرّ الحال حتى احترق المسجد بما فيه سنة 654هـ/1256م.

وُضِعَ مكانَه منبرٌ من صنع الملك المظفّر صاحب اليمن سنة 656هـ/1258م.

ثمّ غُيّر بمنبر أرسله الظاهر بيبرس البندقداري سنة 666هـ/1268م، رمانته من الصندل، ذو تسع درجات، طوله في السماء أربعة أذرع، وله باب بمصراعين؛ ليستبدل كذلك سنة 797ه/1395مـ بمنبر من السلطان الظاهر برقوق.

وفي سنة 820 أو 822هـ/1417م أو 1419م جُعِـل مكانَه المنبرُ الذي أرسله سلطان مصر الملك المؤيَّـد شيخ.

احترق المنبر الأخير سنة 886ه/1481مـ فأقام أهل المدينة منبرًا من الآجر المطليّ بالنُّورَة.

في سنة 888ه/1483م غُيِّـر بمنبر من الرخام أرسله الملك الأشرف قايتباي.

نُقِـل المنبر الأخير إلى مسجد قباء، وأُحِلّ محلَّه منبرٌ من المرمر به تذهيبات ونقوش متقنة، وهو الذي أرسله السلطان العثمانيّ مراد الثالث هديةً سنةَ: 998ه/1590مـ، ذو ثِـنْـتَيْ عشرة درجة: ثلاثٍ بخارجه، وتسعٍ بداخله وهو القائم إلى يومنا هذا.

3- أجزاء المنبر: بعد اكتمال تطوّر المنبر في العصر المملوكي أصبح تحفة فنية وةن م تتكوّن من أجزاء تتمثّل عادة في:

أ- الصدر: قد يكون ذا مصراع أو اثنين، أو من دون ذلك، مزيّن بمختلف العناصر الزخرفيّة المطبّقة بمختلف الأساليب، وكثيرا ما تعلوه زخرفة كتابية قرآنيّة أو تأسيسيّة[9].

ب- الريشتان: المثلّثان الجانبيّان للمنبر، وهما محطّ الفنّ الزخرفة الغنيّة دائما.

ت- بابا الروضة: في مؤخَّـرة الريشتين، وتتّخِذان عادة سِـيَاق زَخْرَفة الريشتيْن.

ث- جلسة الخطيب: فوق بابَيْ الرّوضة مباشرة.

ج- الدرج: الذي يُصْعَدُ من خلاله المنبرُ من الصدرِ إلى جلسة الخطيب، وعلى جانبيْ الدرَج عادة دَرابَـــــزين.

د- الجوسق / القبّة الصغيرة: يَــعْلوا المنبرَ كلّــه جوسق أو قبّة صغيرة متوّجة بهلال صغير.[10]

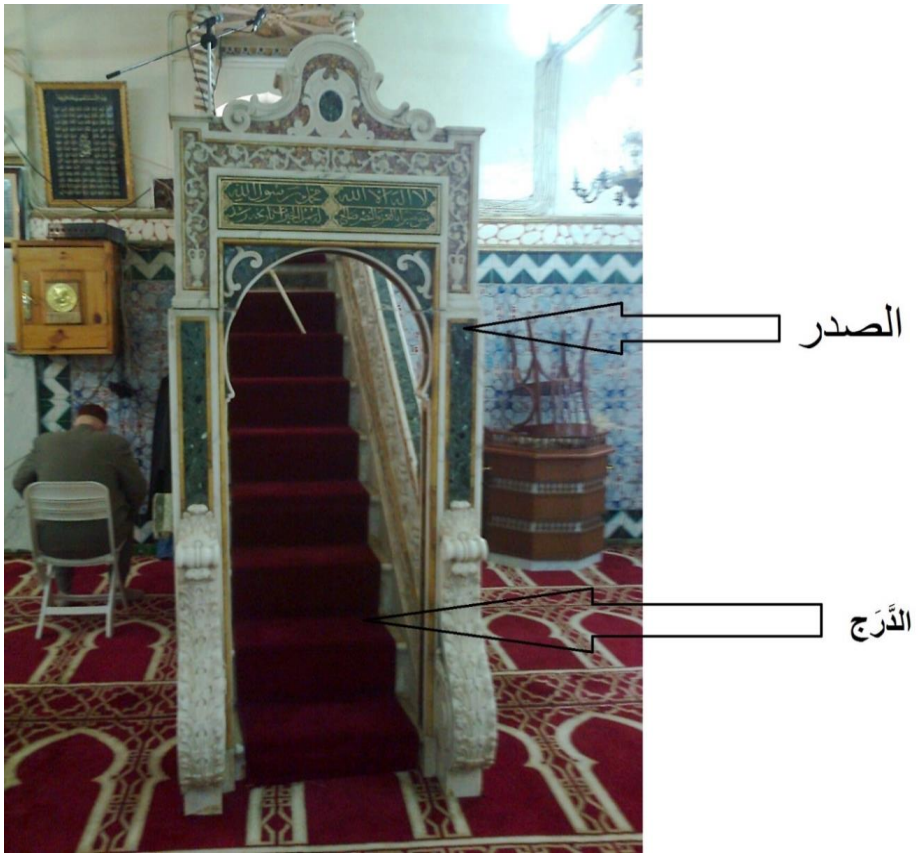

الصورة رقم (01): مَدْخل أو صدر المنبر والدَّرَج لمنبر جامع سيدي الكتّاني بقسنطينة.

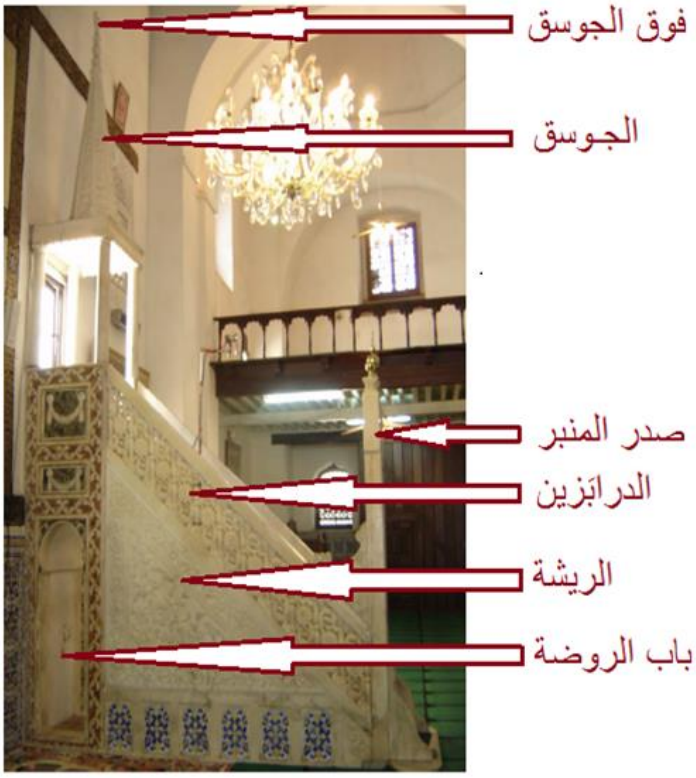

الصورة رقم (02): تفاصيل أجزاء منبر السيّدة المنقول إلى الجامع الجديد بالعاصمة.

4- الوَظِيفَةُ المَنُوطَةُ بالمنبَر: من خلال التعاريف، والأحاديث المُـــــدرجة تتلخص لنا وظيفة المنبر في جانبين:

أ. الجانب العمليّ:

- كونه عنصرا جُـــــعِلَ لراحة الإمام: حيث يقوم ويجلس بسهولة، وبحسب ما جاء في أخبار المدينة وغيره، فإنّ المنبر النبويّ صُنِعَ على إثر إصابة النبيّ – صلّى الله عليه وسلّم – بوجع في فخذيه لطول وقوفه.[11]
- والمنبر من المعالجات الصوتية: فكلما ارتفع الخاطب، سُـــــمِع صوته.
- وهو من المعالجات البصرية: فكلما ارتفع الخاطب، رمق الحضورَ ورمقوه.[12]

ب. الجانب التزيينيّ:جاء المنبر النبويّ الأول بسيط الشكل، متين الصناعة، خادما لوظيفة الخَـــطابة حصرا، يتكوّن من ثلاث درجات ممسوكة بشكل منطقي يُقصد به الوظيفة دون التجميل؛ لكنّ المنبرَ تطوّر فيما بعدُ، وأصبح يُحَلّى بلمسات فنية وجمالية ليؤدّي الجانب الجمالي إضافة إلى الوظيفة، وصار موضعا لفنون النِّجارة والنحت والحفر، وكان النصيب الأكبر من الزخرفة في الريشتين (الجانبين)، وطُبِّقت عليها مختلف العناصر الزخرفية النباتية والهندسية والفلكيّة بشكل بديع،لكنّ المشكلة العارضة هي أنّ الريشتين تقعان في منطقة الظل الكثيف، لذا نادرا ما يُنتبه إلى جمالها[13]،كما وظّفوا الزّخارف الهندسيّة والنباتيّة مطعمة في بابه[14]، والزخرفة الكتابية في الصدر وخاصة في أعلاه.

5- أنواع المنابر: وتنقسم باعتبارين أساسين:

أ. الاعتبار الأول: من حيث مـــــادّةُ إنشائها: ونجد منها:

- المنابر الخشبية: أوّلها منبر النبي – صلى الله عليه وسلم – وأقدم المنابر الخشبية في العالم العربي الباقية إلى يومنا: منبر جامع القيروان الحالي، والذي يعود إلى عهد أحمد بن الأغلب 242هـ - 249ه/857م – 864مـ[15]، وأغلب منابر المساجد خشبيّة، وذكر الشيخ طه الوليّ أنّ الميل إلى صنع المنابر من الخشب هو بدافع الاقتداء بالنبيّ – صلّى الله عليه وسلّم –.
- المنابر الحجرية: وهي قليلة جدّا في العالم الإسلاميّ، كمنبر خانقاه فرج بن برقوق ومنبر مسجد شيخون بمصر[16]، ومنبر السلطان قايتباي في ضريح السلطان برقوق بالقاهرة،[17] فَهُم من الحجر العاديّ.
- المنابر الرخامية: مثل منبر مدرسة السلطان حسن[18]، ومعظم المنابر العثمانية؛ حيث اتّفق أن حُـــوِّلت أثاثاتُهم الخشبية إلى حجرية ورخامية[19].
- المنابر المرمرية: كالمنبر الماثل بمسجد النبي – صلى الله عليه وسلم–[20]، ومنبر جامع السلطان أحمد بإسطنبول[21].
- المنبر الطيني: فقد نقل لنا جلال الدين السيوطيّ في كتاب "تاريخ الخلفاء" عن عُبَيْد الله بنِ العيزار قال: "خطبَنا عُمَرُ بنُ عبد العزيز بالشام على منبر من طين..."[22]، وهي – على ما يبدو - أوّل مخالفة لقاعدة عمل المنابر من الخشب.[23]

ب. الاعتبار الثاني: أنواع المنابر من حيث ثباتُـــها وعدمُـــــه: وهي ثلاثة أنواع:

- ثابتـــــــة: وهي المنابر التي تبقى في موضعها الذي يُخطب عليها منه في سائر الأوقات، وهي من الناحية المعمارية نوعان:

- مستقلة عن جدار القبلة في إنشائها: أي أنها تبنى منفردة، ثمّ توضع إلى جدار القبلة؛ مثل: منبر المسجد النبوي، ومنبر جامع سيدي الكتّاني وغيرهما؛ فَقَدْ بُنِيا منفردين عن جدار القبلة ثُمّ وُضعا إلى جدار القبلة.
- منابر ثابتة ملحقة بجدار القبلة (مبنيّة به): وتتمّ بإنشاء درجات في جدار القبلة، ويكونان من مادّة بناء الجدار نفسها، وهذا مثل منبرَيْ جامع قصر تمرنة القديمة– وسيأتي في التفصيل لاحِقًا–.

- المنابر المتحرّكة: وتوصف هكذا لإنشائها على عجل، من أجل إعادتها إلى مكانها المخصص لها بعد انتهاء الخطبة، فقد جاء في كتاب المجموع لشرح المهذب للشيرازي أنّه يستحبُّ كون المنبر عن يمين الإمام إذا قام في المحراب مصلّيا، وهو الأمر الذي ذكره علماء الآثار والعمارة على أنه العادة في المساجد[24]؛ فكان الدافعُ إلى

ابتكار المنابر المتحرّكة فيما بعدُ هو كِبَـرُ حجمها الذي يأخذ مساحة من الصفوف، وتضيع بذلك فضيلة المسابقة إلى الصفّ الأوّل لاعتراض المنبر بلا مبرّر[25]؛ فكان جَعْلها على قاعدة من عجل يُسهّل تأخيرها إلى جوار صدر الجدار، أو ردَّهـــا إلى الخلف لـــتُوارى في خزائنها من قِـبَل رجل واحد، ودون جهد؛ وذاع هذا الأمر في المشرق والمغرب الإسلاميّـيْن ومثاله: المنبر القديم بجامع سوسة[26]، ومنبر جامع قرطبة[27]، ومنبر جامع الكتبية بمرّاكش الذي يكون داخل مقصورة تنفتح عند دخول الخليفة آليّا عن محراب وعن يمينه بابٌ بداخله هذا المنبر، إذا قام الخطيب ليرتفع عليه انفتح باب المنبر آليّا وخرج المنبر في دفعة واحدة بحركة واحدة لا يُسمع له حِسٌّ ولا يُرى تدبيره، وهذه المقصورة ومنبرها ومحرابها عجبٌ عاجِبٌ من الحضارة الإسلاميّة، وصورة من المبلغ الرفيع للعلوم عند المسلمين

أمّا المنابر التي كانت تُخرج من بيت المنبر يدويًّـا، فكانت مُزوّدة بشيء يُسهّل سحْبَها وجرُّها إلى الخارج، مثل الحلقتين المعدِنيّتين اللتَيْن نجدهُما مُرَكَّبَتَيْن في القائمة من الدرجة الأولى من منبر الجامع الكبير بالجزائر، وهو مرابطيّ ومتحرّك، وهو محفوظ في متحف الآثار القديمة بالجزائر العاصمة في قسم الآثار الإسلاميّة؛ كما نجدها مُزَوَّدة بسكّة للعجلات من أجل تسيير حركة المنبر وتقييدها.

وذكر ابنُ جبير في رحلته أنّمنبر الحرم المكّـــيّ على بكرات أربع، يؤتَى به إذا قربت الجمعة، فإذا انتهت أُعيد إلى مكانه بإزاء المقام[28]. و لم يذكر ابنُ جبير منبرا متحرّكا في رحلته غيرَه.

ويبدو أنّ الفكرة أساسا نبعت عن أهل المغرب الإسلاميّ، واقتبسها الفاطميّون منهم، ثمّ تخلّوا عن هذه الفكرة بعد ذلك، وأخذوا يعملون منابرهم من الحجر أو الجصّ.[29]

وذكر ابنُ جُبيْر في رحلته عند حديثه عن الحرم المكّيّ – قبل ذِكْره المنبر المتحرّك –أنّ كرسيّـــًا بالحرم المكّـــيّ يشبه المنبر، ذا تسع درجات، لقوائمه أربع بكرات، يُدْفـــعُ حتّى يتصلَ درجه الأعلى بعتبة البيت الكريم، ثُـــمَّ يُـــصْـــعَـــدُ عليه ليُـــفتح بابه المبارك.[30]

- المنابر المحمولة: وهي – بحسب الكلام عنها والدلالة التي تقتضيها الكلمة – غيرُ المتحرّكة، والفرْق بينهما كامنٌ في أنّ المنابر المتحرّكة مزوّدة بشيء في ذاتها يُسْهِمُ في فعل احتكاك محرّك للمنبر بينه وبين الأرض أو الجسم الذي يَحملُ ثِقله؛ فَقَدْ تكون مزوّدة بِعَجَلٍ أو بكرات أو سِكّة، أمّا المنابر المحمولة: فهي القابلة للحمل ومُـــجَافَاتها عن الأرض دون جُهد كبير، وقَدْ وُصِفَ أوّل منبر صَنَعَهُ معاوية – رضي الله عنه – وخطَب عليه بمكّة بأنه أوّل منبر مُتَحَرّك، لكنّ القوْل الدقيق فيه هو أنّه محمول، حيث لم تُركّب له عجلات أو ما شابهها ليكون متحرّكا[31].

6- تعدّد المنابر في المسجد الواحد: تكادُ كتبُ العمارة تخلو من تناوُل هذه المسألة، ومَن تَناوَلَها من الكتّاب وَصَفَها بالشذوذ والاستثناء، وأنّها ليست كتعدّد المحاريب، وسببُ ذلك هو انعدام مساجدَ بها أكثرُ من منبر، وأنّ الأخبار لم تنقلْ ذلكَ، إلّا ما أوْرَدَهُ ابنُ الجوزيّ في المنتظمِ من كلامٍ يدلّ على أنّه كان بجامع دار السلطان* ببغداد منبران، وعبّر الشيخ طه الوليّ عن هذا الأمربعد أن عنوَنَ له بقوله: "عدم تعدّد المنابر في المسجد الواحد" بالاستثناء والشذوذعن القاعدة العامّة[32]، وتبعه في ذلك الشيخ عبد الله نجيب سالم بعد أن نقلا الكلام عن ابن الجوزيّ[33]؛ وقد قال ابنُ الجوزيّ في سياق سرْده لأحداث سنة 329ه/941م ما يأتي: "وفي شوّالَ: اجتمعتِ العامّة في جامع دار السلطان، وتظَلَّمَتْ من الدَّيْلم ونزُولِهم في دُورِهم بغير أُجرة، وتعدّيهم عليهم في معاملاتهم، فلم يقَعْ إنكارٌ لذلك، فمنعتِ العامّة الإمامَ من الصلاة، وكسرتِ المنبرَيْن، وشعّثت المسجد، ومنعهم الديْلم من ذلك فقتلوا من الديلَم جماعة"[34].

وإذا تأملنا في كلام ابنِ الجوزيّ تبيّن لنا ما يأتي:

– ابنُ الجوزيّ يتكلّم عن الجامع وليس بصدد وَصْفه لا أدبيّا ولا معماريّا، وإنّما ينقل فتنةً وقعت بين الدّيْلم والعامّة في هذا الجامع.

– وإذا تأمّلنا جيّدا أدركْنا أنّه: لو لَمْ تَكْسرِ العامّةُ المنبريْن لَما عرَفْنا إلى اليومِ أنّه كان بجامع دار السلطان منبران، وخاصّة أنّ ابنَ الجوزيّ هو الوحيد الذي نَقَلَ الحادث بهذا التفصيل.

– والنقطة الثالثة التي نلاحظها من خلال كلام ابن الجوزيّ هي: أنّ منبرَيْ جامع دار السلطان معروفانِ ومعهُودانِ، لذلك أدخل عليهما في كلامه (الألف واللام) التعريفيّة، والتي تُفيدُ هنا: العَهْدَ، وكأنّه أرادَ أن يقولُ: ((وكسَرتِ العامّةُ المنبريْن المعروفيْن المعهودَيْن في هذا الجامع))؛ إذْ لو لَمْ يكونا معهودَيْن لقال: ((وكسَرتْ منبَرَيْنِ كانا في الجامع، أحدهما لغرض كذا والآخر لغرض كذا...))، وهذا الأمر مستقيمٌ منطقيّا كما يستقيمُ لُغَوِيًّا.

ومن خلال تحليل كلام ابنِ الجوزيّ تتبيّنُ لنا صعوبة الحكم على الظاهرة بالشذوذ المطْلق، ويدعَمنا في هذا بَعْضُ كُتّاب علم الآثار والفنون الذين تناولوا الكلام عنها دون أن يَقصِدوا، وهي كما يأتي في أسباب تعدّد المنابر الممكنة والتي وُجِدَتْ فعلا:

– أسبابُ تعدّد المنابر في المسجد الواحد:

أ. اِتّخاذ منابر خاصّةٍ بالحديث: فقد اشتهر في كثير من المساجد ومُعظَمِ مساجد اليمن اتّخاذُ منابر للحديث الشريف إضافة إلى منبر الخطابة في المسجد الواحد، وتكون منابر الحديث خشبيّة ومن درَجَتَيْن مثل منبر

الحديث بجامع الأشاعر (927ه/1525م)، ومنبر الحديث بجامع السيّدة بنت أحمد (1218ه/1803م) اليمنيّان[35].

ب. اتّخاذ منابر خاصّة بالوعظ والتدريس دون خطبة الجمعة والأعياد: وهي شبيهة بالعلّة الأولى، حيثُ تُعْمَل منابرُ ثانويّة أقلّ حجما وأناقة من منابر الخطابة، وتعمل عمَل الكرسيّ للإمام أثناء تدريسه[36].

فمن هذا الكلام يُمكنُ افتراض أنّ: تتعدّد المنابر لتعدّد الوظائف المنوطة بها.

ت. تركُ السلطانِ بَصْمَتَهُ: ذكرَت الأستاذة علياء عُكاشة عند وصفها جامع المرمر بمصر أنّ به منبرًا من المرمر المطعّم بالرخام الأحمر، وهو من إضافات الملك فاروق، وبجانبه المنبرُ الأصليّ من الخشب، مزخرف بالنقوش النباتيّة.[37]

ث. تعدّد المذاهب: وهو افتراض فقط، إلّا أنّه يجبُ أن يُراعَى لوجود القرائن المؤدّية إلى ذلك، فإذا ساغَ للأوّلين إنشاءُ عِدّة محاريب في مسجد واحد بحُجّة تنوّع المذاهب، فإنّه يسوغ لهم إنشاءُ أكثر من منبر في مسجد واحد للحُجّة نفسِها، أو حتّى للتّنوّع القبليّ والعِرْقيّ، دَرْءًا للفتن، فالذي حصل في العهد العبّاسيّ أيّامَ المعتضد سنة 280هـ/894م أكبرُ من إنشاء منبر أو محراب ثانٍ بسبب تعدّد المذاهب والأعراق، فقد كان المعتضدُ أوّلَ من أحدث في الإسلام جُمعة في بَلَدٍ مع قيام الجمعة القديمة فيه، وقد أحدثها في جامع دار السلطان الذي ذُكِرَ بأنّه كان يضُمّ منبريْن، وسبَبُ إحداثِ هذه الجمعة هو خَشْيَةُ الخُلَفاءِ على أنفُسِهم[38].

ونَفى الشيْخُ الدكتور عبد الله نجيب سالم أن تتعدّد المنابرُ لتعدّد المذاهب لاستحالة وقوف خطيبيْن في آنٍ واحدٍ[39]، لكن يُمكننا قياسُ تعدّد المنابر لتعدّد المذاهب على تعدّد المحاريب لتعدّد المذاهب أيضا، وقد تبيّن أنّ الأئمّة كانوا يجتمعون لصلاة المغرب كلٌّ في محرابه، ولا يدري المَأْمومون أيّ تكبير أو تسميع هم يُتابعون. لكنْ يصعب القوْلُ بهذه العلّة بهذا الشكْل بما أنّه لم يَرِدْ من الأخبار ما يدلّ على ذلك؛ ويبْقَى مخرَجٌ آخرُ لهذه العلّة، وهوَ أن يقوم الخطيبُ الأوّل لخطبة الجمعة في أوّل وقت الظهر، ثمّ يأتي الخطيب الذي بعدَهُ ويخطُبُ بعدَ إنهاء الخطيبِ الأوّلِ صلاة الجمعة، فيخطُبُ الثاني ويُصلّي بأصحاب مذهبه صلاة الجمعة، لأنّ وقت الظهر الاختياريَّ واسعٌ لذلك، والفُقَهاءُ مُجْمعون على ذلك[40].

الخاتمة:

من خِلال ما سبَقَ تبيّن لنا أنّ المنبر –كعُنصُر معماريّ مُلازم للمسجد– له علاقة تامّة ومباشرة بمعناه اللغويّ.

دعت الحاجَةُ الماسّةُ إلى توفير الراحة للخطيب للمعالجة الصوتيّة والبصريّة إلى ابتكار المنبر، وكان مبْتدؤُه مسجدُ النبيّ –صلّى الله عليه وسلّم–

لم يُعْمَل مِنبَرٌ غيرُ منبر النبيّ –صلّى الله عليه وسلّم– كدلالة على الحكومة المركزيّة والمرجعيّة الإداريّة والسياسيّة، حتّى عهدِ عُثمان بن عفّان –رضي الله عنه–

قضيّة تعدّد المنابر لا يمكن نفيُها، لتوارد الأخبار بوجُودها تصْريحًا أو تلميحًا، وتبقى مسألة تعليل تعدّدها قائمة وواسعة، وكلُّها مُحْتَمَلٌ.

الهوامش:

1_ عزب (خالد)، فقه عمارة المساجد: مجلة العربي،العدد 656، جويلية 2014،ص 44، 45.

2_ ابن منظور (محمّد) بن مكرّم، لسان العرب، مج05، ج43، تح: عبد الله علي الكبير وآخرين، مصر، القاهرة، دار المعارف، دط، دت، ص 44، 45

3_ عزب (خالد)، المرجع السابق، ص 44، 45.

4_ أبو الحسين (مسلم) بن الحجاج بن مسلم، الجامع الصحيح،ج4، دط، دت، ص 123.

5_ البيهقي أبوبكر (أحمد)، السنن الكبرى، ج5، تح: محمد عبد القادر عطا، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية،ط3، 1424هـ / 2003م، ص 406-407.

6_ المصدر نفسه، ص406- 407.

7_ القزويني (محمد) بن عبد الكريم، شرح مسند الشافعي، مج01، تح: أبي بكر وائلم حمد بكر زهران، قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة، ط01، 2008م، ص505.

8_ابن زبالة (محمد) بن الحسن، أخبار المدينة، جمع وتوثيق ودراسة: صلاح عبد العزيز زين سلامة، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، ط1، 2003م.

*_ الطـــرفاء: مفردها طَرْفَاءةَ وطَرَفَة، جاء عند الفيروز آبادي أنها شجر له أربعة أنواع، منها: الأثل؛ ومنه فلا تعارض بين أدلة القائلين بأنّ المنبر من الطرفاء، والقائلين بأنه من خشب الأثل، فالمنبر من خشب الأثل الذي هو نوعٌ من الطرفاء. الفيروز آبادي (محمّد) بن يعقوب، القاموس المحيط، تح محمد نعيم العرقسوسوي، دار الرسالة، بيروت –لبنان 2005. ص831.

9_ رزق (محمّد) عاصم، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي، مصر 2002، ص303- 304.

10_ نفسه.

11_ ابن زَبالة (محمّد) بن الحسن، المصدر السابق، ص86، 87.

12_ خالد عزب، المرجع السابق، ص44، 45.

13_ مؤنس (حسين)، المساجد، سلسلة علم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت 1981، ص 75.

14_ رزق (محمّد) عاصم، المرجع السابق، ص303.

15_ عثمان (نجوى)،مساجد القيروان،دار عكرمة، ط1، دمشق- سوريا2000، ص 77.

16_ وزيري (يحيى)، موسوعة عناصر العمارة الإسلامية، ج3 ، مكتبة مدبولي، مصر1999، ص27.

17_ محمّد حسن (زكي) ، أطلس الفنون الزخرفيّة والتصاوير الإسلاميّة، لبنان، بيروت، دار الرائد العربي، دط، دت، ص 270.

18_ وزيري (يحيى)، المرجع السابق، ص27.

19_ محمد حسن (زكي)، في الفنون الإسلامية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة - مصر 2012، ص142.

20_ عبد الغني (محمد) إلياس، تاريخ المسجد النبوي، مطابع الرشيد المملكة العربية السعودية، ط5-2005، ص 119- 118.

21_ محمد حسن (زكي)، في فنون ...، المرجع السابق، ص 183.

22_ السيوطيّ (عبد الرحمن) جلال الدين، تاريخ الخلفاء،دار ابن حزم،ط1،بيروت- لبنان 2003، ص387- 388.

23_ الوليّ (طه)، المساجد في الإسلام، دار العلم للملايين، ط1 بيروت- لبنان 1988، ص199.

24_ النووي (يحيى) بن شرف، المجموع شرح المهذّب للشيرازي، ج4، تح وتعل: محمد نجيب المطيعي، المملكة العربية السعودية، جُـــــدّة، مكتبة الإرشاد، ص 398. وانظر كذلك: مارسي (جورج) و(ويليام)، تراث تلمسان المعماري في القرون الوسطى، تر: د. سعيد دحماني، مؤسسة الرجاء للطباعة والنشر، قسنطينة، الجزائر 2012، ص 41.

25_ بن بلّة (خيرة)، المنشآت الدينيّة بالجزائر خلال العهد العثمانيّ، معهد الآثار جامعة الجزائر 02، 2007 – 2008م، رسالة مُقَدّمة لنيل شهادة دكتوراه دولة، ص309

26_ مؤنس (حسين)، المرجع السابق، ص74، 75.

27_ العيدروس (محمد) حسن، العمارة والفنون الأندلسية في غرناطة وطليطلة وقرطبة، مصر، القاهرة، دار الكتاب الحديث، ط1، 2011م، ص69.

28_ ابن جُبير (محمد) الكناني، تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، تح: علي كنان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر 2008، ص72- 74.

29_ الوليّ (طه)، المرجع السابق، ص199، 200.

30- ابن جبير (محمد) الكناني، المصدر السابق، ص 70.

31_ بن بلّة (خيرة)، المرجع السابق، ص308.

*جامع دار السلطان: سُمّي هكذا لأنّه بُنِيَ في قصر الخلافة في عهد المعتضد سنة 280ه / 893م، وقد عُرِف بهذا الاسم عند ابن الجوزيّ فقط، وإلّا فالتسمية التي عُرف بها في سائر المصادر فهي: "جامع دار الخلافة". انظر: الخطيب البغداديّ (أحمد) بن عليّ، تاريخ بغداد مدينة السلام، ج01، تحقيق: بشّار عوّاد معروف، لبنان، بيروت، دار الغرب الإسلاميّ، ط01، 1422ه/2001م، ص428، 429.

32_ الولي (طه)، المرجع السابق، ص199.

33_ سالم (عبد الله) نجيب، منارات الهدى في الأرض –تاريخ المساجد الشهيرة-، دار قتيبة، دمشق، سوريا 2010، ص233.

34_ ابنُ الجوزيّ (عبد الرحمن)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج14، تحقيق: محمّد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، بيروت، لبنان، دار الكتب العلميّة، ط01، 1412ه/1992م، ص07.

35_ خليفة (ربيع حامد)، الفنون الزخرفيّة اليمنيّة في العصر الإسلاميّ، مصر، القاهرة، الدار المصريّة اللبنانيّة، ط01، 1412ه/1992م، ص91، 92، 93، 94.

36_ سالم (عبد الله) نجيب، المرجع السابق، ص233.

37_ عكاشة (علياء)، العمارة الإسلامية في مصر، ط1 دار بردي القاهرة- مصر 2008، ص60.

38_ الألوسيّ (محمود) شكري، تاريخ مساجد بغداد وآثارها، تهذيب: محمد بهجة الأثري، مطبعة دار السلام، بغداد- العراق 1927، ص15.

39_ سالم (عبد الله) نجيب، المرجع السابق، ص233.

40_ العثيمين (محمّد) صالح، الشرح الممتع في زاد المستقنع، ج02، درا ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، 1422هـــ، ص101...106.